المتنبى
بين نفسيته وشاعريته

للدكتور محمد مهدى علام

من القضايا المقررة التى لاتحتمل الجدل الآن أن أسلوب الكاتب ينم عن شخصيته وعن نفسيته . ذلك أن الأسلوب الأدبى قلما يقتصر على التعبير عن فكرة تعبيرا محدودا دقيقا لا يزيد عنها ولا ينقص. بحيث لا تختلف القراء أو السامعون فى فهم مقصوده أىّ اختلاف . إن هذه الدقة فى التعبير ، التى يكون اللفظ فيها قياس المعنى ، كالثوب المفصل المحكم لا توجد عادة إلا فى الأسلوب العلمى البحت الذى تخصصت ألفاظه بمعان لا تتفاوت ، وليس لألفاظه طبيعة التفاعل بعضها مع بعض تفاعلا يلقى عليها أضواء وظلالا .

إن الأسلوب العلمى ، كالمعادلات الرياضية ، تحتفظ بقيمتها سواء قدمت بعض الحدود التى فيها أو أخرتها ، فقيمة (س) أو (ص) فى المعادلة الجبرية الواحدة تظل محتفظة بمدلولها الرياضى ، ولا كذلك الألفاظ فى الأسلوب الأدبى ، فإن وضعها من الجملة تقديما أو تأخيرا ، أو بجانب لفظ دون لفظ ، يؤثر فى المعنى تأثيرا يلحظه كل ذى ذوق أدبى ، كالألوان لاقيمة لها فى لوحة إلا بتجاورها وامتزاجها.

كل هذا واضح مقرر من وجهة نظر القارئ المتلقى ، الذى يستشف من العبارة التى أمامه هدف كاتبها منها . ولكن الذى أريد أن أصل إليه لأقدم به لدراستى هذه ، هو أن الحالة النفسية التى يكون فيها الكاتب تؤثر فى كل من فكرته وأسلوبه . وما أظن أن هناك صعوبة فى إدراك أن نفسية الكاتب تؤثر فى أفكاره ، فنحن نترقب عادة من الكاتب المغضب أن يقول شيئاً يدل على غضبه ، ومن الشاعر الثائر أن يعبر عن ثورته ، ومن المحب الولهان أن يفيض رقة ووجدانا ، ولكن هناك أمرا أخفى من هذا ، هو أن الكاتب إذا أراد — أو أريد له — أن يتكلم عن حالة لا تلائم ما يشعر به فى قرارة نفسه ، لم يكن ثمة بد من أن يظهر ذلك فى أسلوبه لدى العين الناقدة .

ويختلف الكتاب والشعراء فى مدى نجاحهم فى إخفاء مشاعرهم الكامنة حينما

(*) ألقى البحث فى الجلسة التاسعة من مؤتمر الدورة الثامنة والأربعين فى ٧ من جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ ، الموافق ٢ من مارس ١٩٨٢ م .

يعرضون لأمور تختلف مع تلك المشاعر ومن أقدر الناس على إخفاء هذه الكوامن النفسية « أبو الطيب المتنبى » ، الذى كان يضطر فى بعض الأحيان إلى إظهار الرضا وهو غاضب ، إلى المدح وفى نفسه أن يهجو ، إلى الاعتذار وفى اعتقاده أنه يجب أن يعتذر إليه . وليس من شأنى هنا أن أفصل فى أن «المتنبى » كان أو لم يكن على حق فى أن يكون غاضبا وإن أظهر الرضا . وإنما الذى يعنينى أن يكون معتقدا ذلك فى قرارة نفسه بحق أو بغير حق ، وأن أحاول أن أبين أثر هذه المشاعر فى أسلوبه الذى تظاهر فيه بغير ما استقر فى نفسه .

وللمتنبى فى هذا الصدد مقدرة نادرة حقا ، أعانته عليها شاعرية ممتازة ، وعبقرية فذة ، حتى إن كثيرا منا يمر بما يقول هذا الشاعر العملاق فى مثل هذه المناسبات دون أن يتنبه إلى خفايا نفسه .

فنحن نعلم قصته مع الأمير «سيف الدولة» ، الذى كان يغدق عليه العطايا نظير قصيدتين أو ثلاث قصائد فى السنة . ومع ذلك كان «المتنبى» — وهو الذى كان يرى أن فؤاده من الملوك وإن كان لسانه يرى من الشعراء — يحتجز نفسه ، ويبطىء بمدائحه لسيف الدولة ، وكان هذا يشق على الأمير ، فيحضر من الشعراء من كانوا من غير شك دون «المتنبى» منزلة وكان هؤلاء يتعرضون لأبى الطيب بما لا يحب ، وكان أبو الطيب لا يعبأ بذلك .

ويزيد ذلك فى ضجر «سيف الدولة» ، ويتمادى «أبو الطيب» فى الإغضاء عن الأمير وعن المتشاعرين الذين غرُّوا بذمه ، ويستمر الأمير فى التحريض على أبى الطيب ، وبعد مدة قضاها الأمير والمتنبى فيما يسمى بلغة العصر الحديث « حرب الأعصاب » أو « الحرب الباردة » تقدم أبو الطيب للأمير بقصيدته المشهورة التى تسمى تارة عتابا ، وتسمى مرة اعتذارا ، وتعتبر أحيانا مدحا . وكل الذى يعنينا الآن هو أن ندرك أن « المتنبى » كان غاضبا ، ولكنه كان مضطرا لمدح سيف الدولة وترضيته ، وقد أعلن عن سخطه فى عبارات واضحة صريحة ، على حين أعلن عن رضاه فى عبارات مثقلة بالهموم ، محملة بالغضب .

فلننظر فى هذه القصيدة قبل البدء فى دراستها ، وأنا أعلم أنها من أسبق شعر « المتنبى » إلى قارئيه ، ولكننى أود أن نستعيد فكرتها العامة التى احتفظت بها ألف سنة ، قبل أن أعرض لها بالتحليل .

قال المتنبى :

واحرَّ قلباهُ ممن قلبه شَبِمُ
ومَن بجسمى وحالى عندَه سَقَمُ!

مالى أُكَتِّم حبا قد برى جسدى
وتدَّعى حبَّ سيف الدولة الأمم !
إن كان يجمعنا حب لِغُرَّته
فليت أنّا بقدر الحب نقتسم !

* * *

قد زرته وسيوف الهند مغمدة ،
وقد نظرت إليه والسيوف دم ،
فكان أحسنَ خلق الله كلهم ،
وكان أحسنَ مافى الأحسن الشِّيَم .

* * *

فَوْت العدو الذى يَمَّمْتَه ظفر ،
فى طيه أسف ، فى طيه نعم :
قد ناب عنك شديدُ الخوف ، واصطنعت
لك المهابة مالا تصنع البُهَم ؛

ألزمتَ نفسك شيئا ليس يلزمها :
أن لا يُوارِيهم أرض ولا علم .
أكلما رُمْتَ جيشا فانثنى هربا
تصرفتْ بك فى آثاره الهِمَم ؟

عليك هَزْمُهمُ فى كل مُعْتَرك ،
وما عليك بهم عار إذا انهزموا :
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحتْ فيه بيض الهند واللِّمَم ؟

* * *

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً :
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ؟
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

* * *

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ،
وأسمعت كلماتى من به صمم ؛
أنام ملءَ جفونى عن شواردها ،
ويسهر الخلق جرَّاها ويختصم ؛
وجاهلٍ مَدَّه فى جهله ضحكى ،
حتى أتته يد فَرَّاسَة وفم :
إذا نظرت نيوب الليث بارزة
فلا تظنَّنّ أن الليث يبتسم ؛
ومهجةٍ مهجتى مِن هَمِّ صاحبها ،
أدركتُها بجواد ظهره حَرَم ،
رجلاه فى الركض رجل ، واليدان يدٌ ،
وفعله ماتريد الكف والقدم ؛
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به
حتى ضربت وموج الموت يلتطم ؛
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ،
والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؛
صَحِبتُ فى الفلوات الوحش منفردا ،
حتى تعجَّب منى القُورُ والأكَم ؛

* * *

يامن يعزُّ علينا أن نفارقهم ،
وجداننُا كلَّ شىء بعدكم عدم ،

ما كان أخلقنا منكم بتكرِمة ،
لو أن أمرَكمُ من أمرنا أمَم !

إن كان سَرّكُم ما قال حاسدنا
فما لجُرح إذا أرضاكم ألم .

وبيننا — لو رعيتم ذاك — معرفةٌ ،
إن المعارف فى أهل النهى ذِمَم ؛

كم تطلبون لنا عيبا فيُعجزُكم !
ويكره الله ما تأتون والكرم :

ما أبعدَ العيبَ والنقصان عن شرفى !
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم ؟

ليت الغمام الذى عندى صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الدِّيَم !

أرى النوَى تقتضينى كل مرحلة
لا تستقلّ بها الوخّادة الرُّسُم ؛

لئن تركِنِ ضُمَيرا عن مَيامِننا
ليحدثنّ لمن ودعتهم ندم ؛

إذا ترحلت عن قوم ، وقد قدروا
ألاّ تفارقهم ، فالراحلون هم .

* * *

شر البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر ما يكسب الإنسان ما يَصِم ؛

وشر ما قنصْته راحتى قَنَص
شُهب البُزاة سواء فيه والرَّخَم .

بأى لفظ تقول الشعر زِعْنِفة
تجوز عندك ، لا عُرْب ولا عجم !

* * *

هذا عتابك ، إلا أنه مِقَةٌ
قد ضُمِّنَ الدرَّ ، إلا أنه كلم .

ولنقف قليلا عند هذه القصيدة . لقد جأر الشاعر بالشكوى المريرة من أول بيت ، بل من أول كلمة ، فهى استغاثة صارخة :

وآحر قلباه ممن قلبه شبم ،
ومن بجسمى وحالى عنده سقم !

وهو لا يتردد فى وصف عاطفته وعاطفة سيف الدولة ، ولا يترفق فى اختيار الألفاظ لهذا الوصف ، فقلبه مفعم بالحرارة وقلب سيف الدولة خامد بالشبم والبرود .

ثم ينم على نفسه فى البيت الثانى فيعجب ، أو يتظاهر بأنه يعجب ، من أنه يكتتم حبه لسيف الدولة ، يتكلف ذلك تكلفا ، مع أن ذلك الحب قد برى جسده ، فى حين أن حساده من المتشاعرين الذين يقربهم سيف الدولة يدعون حبه ويتظاهرون به :

مالى أكتّم حبا قد برى جسدى
وتدعى حُبَّ سيف الدولة الأمم؟

فإذا كان هناك اشتراك بينه وبينهم فى حب الأمير ، فليت الأمير يقسم عطفه وهباته بينه وبينهم ، على قدر مايكنه كل منهم له من الحب :

إن كان يجمعنا حب لغرّته
فليت أنّا بقدر الحب نقتسم !

وبعد أن يتنفس الشاعر شكواه فى هذه الأبيات الصارخة ، يشعر أن لسيف الدولة حقا فى مدحه ، وأن سبب القطيعة التى يشكو منها المتنبى هو انقطاع مدحه عن الأمير ، فتسعفه شاعريته القادرة ، وينتقل انتقالا سريعا إلى استرضاء وليه ؛ ولكنه انتقال لايخلو من مفاجأة ، فليس له تمهيد ، وتكاد تنعدم الصلة بينه وبين ما سبقه من الشكوى المريرة .

أية علاقة بين شكواه من برود قلب الأمير عنه ، وبين شكواه من الحب الزائف الذى يتقرب به المتشاعرون للأمير ؛ بين شكواه من ظلم الأمير له فى عدم منحه ما يقابل حبه وإخلاصه له — أية علاقة بين هذا كله — وبين قوله عقب ذلك :

قد زرته وسيوف الهند مغمدة ،
وقد نظرت إليه والسيوف دم ،

فكان أحسن خلق الله كلهم ،
وكان أحسن ما فى الأحسن الشيم

الحق أن المتنبى كان يعانى هنا صراعا نفسيا شديدا ، بين غضبه من سيف الدولة ، وشعوره بأن عليه أن يمدحه ويترضاه ، ولهذا انتقل هذا الانتقال المفاجىء ، المفاجىء بمقاييس منطق الفكر ، ولكنه انتقال طبيعى بمقاييس منطق النفس ، المنطق «السيكولوجى» الذى لا يخضع للمقدمات والنتائج ، بل يبيح المتناقضات ، ويعيش وسط التقلبات التى تخضع للرغبات المتضاربة فى نفوسنا : فقد انتقل المتنبى هذا الانتقال المفاجىء خضوعا لموقف تمليه الظروف التى تتعارض مع ما يجيش فى نفسه من الألم . بل إن هذا الانتقال المفاجىء هو التمهيد الحقيقى لما أملته لباقة المتنبى عليه فى استرضاء سيف الدولة ، استرضاء مؤقتا ، بمدحه له بين عاصفتى غضب يسميهما كثير من قراء المتنبى عتابا أو اعتذارا . أولاهما تلك التى استهل بها القصيدة ، والأخرى يثيرها وشيكا عندما يعتقد أنه أدى ما يجب عليه نحو سيف الدولة ، فيصرخ مرة أخرى بقوله :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

أجل ، لقد وجد المتنبى تمهيدا عاما ينتقل به من شكوى سيف الدولة ، إلى مدحه فقال : إنه قد زاره فى حالتى السلم والحرب ، فكان أحسن الناس جميعا وكان أحسن ما فيه شيمه وأخلاقه : وهو معنى عام ، بل عادى لا يرتفع إلى مستوى المتنبى ، ولكنه كان ضروريا ؛ كان مركبا صعبا اضطر المتنبى إلى ركوبه : كان قنطرة عبر عليها من شكواه إلى مايصح أن نسميه مدحا خاصا تظهر فيه شاعرية الشاعر أو تتبين فيه صفات الأمير ، وهو ما خصص له ستة الأبيات التالية التى ظهرت فيها الشاعرية بصورة رائعة جميلة :

فَوْتُ العدو الذى يممته ظفر ،
فى طيه أسف ، فى طيه نعم :

قد ناب عنك شديد الخوف ، واصطنعت
لك المهابة ما لا تصنع البُهَمُ ؛
ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها ؛
أن لا يواريهم أرض ولا علم .
أكلما رمت جيشا فانثنى هربا
تصرفت بك فى آثاره الهمم ؟
عليك هزمهم فى كل معترك ،
وما عليك بهم عار إذا انهزموا :
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم ؟

ولئن اعترفنا للمتنبى هنـــا بمقدرة تصويرية فائقة ، إنه لا يفوتنا أن نسجل أنه لم يبتدع فكرة جديدة ، وإن كان قد ابتدع صورة جديدة . بل هو لم يمدح سيف الدولة إلا بما مدحه به فى غير هذا الموقف . ألم نقل إنه لم يكن راضيا تمام الرضا عن سيف الدولة ؟ فهو لذلك يعانى قدرا من الصعوبة التى يعانيها من يحمل نفسه على القول حملا ، فيعود إلى ما اختزنه عقله من الأفكار ليخرجه فى صورة قديمة أو جديدة .

والدليل على ما نقوله هو هذه القوالب التعبيرية التى صاغ فيها المتنبى هذه الدفعة من المديح ، فهى قوالب التعبير عن التقريع والتأنيب التى يصوغ فيها الغاضب فى العادة ما يريد أن يقوله من اللوم والنقد :

ألزمت نفسك شيئا ليس يلزمها :
أن لا يواريهم أرض ولا علم .
أكلما رمت جيشا فانثنى هربا
تصرفت بك فى آثاره الهمم ؟
عليك هزمهم فى كل معترك ،
وما عليك بهم عار إذا انهزموا :
أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر
تصافحت فيه بيض الهند واللمم ؟

هذه صيغ من يشير بأصبعه إلى من أتى أمرا يلام عليه ، وإن كانت محتويات هذه الصيغ قد تضمنت مدحا وإطراء .

لقد كان أبو الطيب خاضعا لعاطفتين متناقضتين : إحداهما تملى عليه فكرة المدح لترضية أميره ، والأخرى خفية فى نفسه تجيش بغضبه عليه . ولقد أنقذته شاعريته البارعة بما قال من المدح ، ولكن عقله الباطن تحكم فى قوالب الصياغة لهذا المدح ، فجاءت كما نرى قوالب النقد والتأنيب ، وإن ملئت بالمدح والثناء .

وما مثله فى هذا إلا كمثل الشاعر الذى قال لأميره يستجديه :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء .

إن هذا الشاعر تختلج فى نفسه فكرة طلب العطاء من ممدوحه . ولكن الحياء يغلبه . ولنترك ما قاله موقتا ، لننظر فيما نترقب أن يقوله مثله .

إننا نفهم أن يقول :

أأذكر حاجتى ؟ أم قد كفانى
حيائى ، إن شيمتى الحياء .

لأن هذا يكون أصدق تعبير عن حالته النفسية .

ولقد نفهم أنه يقول :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
سخاؤك ؟ إن شيمتك السخاء .

لأن هذا يكون تعبيرا صادقا عن أمل الشاعر فى أن كرم ممدوحه يعفيه من مذلة السؤال .

ولكن الشاعر لم يقل هذا ولا ذاك ، لم يقل :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
سخاؤك ؟ إن شيمتك السخاء .

لأن شعوره بالحياء والخجل كان مسيطرا عليه ، ويأبى إلا أن يجد منفذا إلى التعبير عن نفسه .

ولكنه لم يقل كذلك :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
حيائى ؟ إن شيمتى الحياء .

لأن هذا يبعد به عن مدح وليه ، ويركز الأضواء على نفسه . وهنا تمتزج قوة العقل الباطن بقوة الشاعرية ، فيحول الحياء والخجل الذى يشعر به هو ، إلى صفة يمدح بها أميره ، مع أن الموقف لا يقتضيها ، ولكن هكذا صهرت شاعرية الشاعر هذه الصفة التى يشعر بها ، فأخرجتها صفة مدح لممدوحه :

أأذكر حاجتى ، أم قد كفانى
حياؤك ؟ إن شيمتك الحياء .

هذا شبيه بالمسلك الذى فرض نفسه على أبى الطيب ، حينما وصف سيف الدولة بالشجاعة فى تلك العبارات التى تنم صيغها وقوالبها التعبيرية عن اللوم والتأنيب .

ولنسق دليلا آخر على ما نقول : دليلا نأتى به من شعر أبى الطيب نفسه .

فقد مدح سيف الدولة فى ظروف أسعد من هذه التى كان فيها وهو ينشىء هذه القصيدة ، ومدحه بنفس المعانى التى تناولها فى المقطوعة التى حللناها الآن . فماذا قال له ؟ قال يذكر نهوضه إلى ثغر الحدث لما بلغه أن الروم أحاطت به :

ما مضوا لم يقاتلوك ، ولكنّ (م)
القتال الذى كفاك القتالا :
والذى قطّع الرقاب من الضّرْ
ب بكفّيك قطّع الآمالا ؛
والثبات الذى أجادوا قديما
علّم الثابتين ذا الإجفالا .
نزلوا فى مصارع عرفوها ،
يندبون الأعمام والأخوالا :
تحمل الريح بينهم شعَر الها
م ، وتُذرى عليهم الأوصالا ،
تنذر الجسم أن يقيم لديها ،
وتُريه لكل عضو مثالا .

أبصروا الطعن فى القلوب دراكا ،
قبل أن يبصروا الرماح خيالا ؛

وإذا حاولتْ طعانَك خيلٌ
أبصرت أذرعَ القنا أميالا :

بسط الرعب فى اليمين يمينا
فتولوا ، وفى الشمال شمالا

يَنْفضُ الرَّوعُ أيديا ليس تَدْرِى
أسيوفا حملن أم أغلالا ؛

ووجوها أخافها منك وجه
تركت حسنها له والجمالا

والعِيان الجلىُّ يحُدِث للظنّ (م)
زوالا وللمراد انتقالا ؛

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا .

هاتان صورتان متشابهتان فى وصف سيف الدولة بالشجاعة ، وبأن بأسه يسبق جيوشه فيلقى الرعب فى قلوب أعدائه . ولكننا لا يمكن أن تمر بنا الصورتان من غير أن نلحظ ما بينهما من فرق فى الأسلوب التعبيرى الذى ينم عن الحالة النفسية التى كانت تمتلك الشاعر فى كل منهما . ففى إحداهما احتشاد ومهارة فنية ، وفى الأخرى تدفق وانسياب وتلقائية . فى إحداهما صراع خفى بين المعنى واللفظ ، فصلت فيه عبقرية المتنبى بملء صيغ اللوم بجميل المدح ، فكان كمن يضطر إلى تقديم طعام أو شراب لمن فى نفسه غضب منه ، فيقدم كريم الشراب ولذيذ الطعام . لا فى كئوس شفيفة وصحاف فاخرة ، بل فى كيزان من الصفيح ، وآنية من النحاس : لكأن المتنبى قال لسيف الدولة : المعنى لك واللفظ لى . بل إنه قال له ذلك فعلا ذات مرة :

إن هذا الشعر فى الشعر مَلَكْ ،
سار فهو الشمس ، والدنيا فلك :

عدل الرحمن فيه بيننا ،
فقضى باللفظ لى ، والحمد لك .

أما الصورة الأخرى فإنها تنساب مسترسلة ، فى عبارات متدفقة ، تصدر عن نفس مؤمنة بما تقول ، لا تحتجز شيئا ، ولا تستتر وراء عبارة أو صيغة أو قالب من قوالب التعبير . إن من الواضح الجلى أن المتنبى هنا يقول لسيف الدولة : لك المعنى واللفظ كلاهما ، لا أحتجز لنفسى شيئا منهما .

ولنعد إلى قصيدتنا لنرى أن الشاعر قد أقحم مضطرا تلك الصورة التى مدح بها سيف الدولة بين صرختيه بالشكوى ، كأنها فترة استجمام بين الصرختين ، أو لعلها — كما قلنا من قبل — ستر لموقفه من وليه الذى كان يتعطش لسماع مديحه . سمعنا صرخته الأولى فى مستهل القصيدة ، أما صرخته الثانية فهى التى يلاحق بها ما قاله فى سيف الدولة مدحا ،

حتى إنه يكاد أن يمحو بها أثر ذلك المدح :

يا أعدل الناس ، إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

ونحن لا ننخدع بسحر التعبير فى هذا البيت ، فأبو الطيب لا يصف سيف الدولة بالعدل ، كما يبدو للوهلة الأولى من ظاهر اللفظ ، بل هو يصفه بالظلم ، وإن قال له :

« ياأعدل الناس » . فما المقياس الطبيعى التلقائى الذى يقيس به المتنبى عدل سيف الدولة ؟ بل ما المقياس الطبيعى التلقائى الذى يقيس به إنسان عدل إنسان آخر ؟ إن ذلك يكون فى العادة بالحكم على معاملته له هو ، فإن ظلمه فهو ظالم ، أو بالأحرى ، إن اعتقد أنه ظلمه سماه ظالما ، وإن اعتقد أنه أنصفه سماه عادلا . فماذا قال المتنبى لسيف الدولة فى الحقيقة ؟ لقد قال له يا أظلم الناس ، لأنك خصم وحكم ، ولم ترتفع فى قضائك فوق مستوى الخصومة . ولكن شاعرية المتنبى ، وشعوره بجلال مقام سيف الدولة — فى هذه اللحظة على الأقل — حوّلا هذا التعبير إلى تعبير يشعر بالمدح ، أو على الأصح يخفف من أثر هذا الهجاء :

يا أعدل الناس ، إلا فى معاملتى ،
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم !

ويؤيد هذا ما تابع به أبو الطيب هذه الشكوى ، إذ يقول :

أعيذها نظراتٍ منك صادقةً
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ؟

فهل قصد شاعرنا هنا أن يقرر حقيقة أنه ينزه سيف الدولة عن خطأ الحكم ، وأن يثبت له صدق النظر فى التفرقة بين الشحم والورم ؟ هل ما جاء بعد هذا البيت يرجح هذا الظن ؟

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره
إذا استوت عنده الأنوار والظلم ؟

فإذا لم يكن هذا الإيحاء الأليم كافيا فى إثبات ما نقوله ، فلنستمع إلى ما جاء بعده من الأبيات التى يتبع فيها الشاعر شكواه من الأمير ، بشكواه من خصومه وحساده الذين يقربهم سيف الدولة ، فيلتفت إليهم المتنبى التفاتة غاضبة ، ويصب عليهم احتقاره صبا ، فى عشرة أبيات تفيض زهوا وكبرياء وصلفا ؛ فما يترك مكرمة من المكارم إلا أضفاها على نفسه ، غير عابىء بأنه فى مجلس وليه ، وبأن الموقف موقف استرضاء واعتذار ، لا موقف زهو وفخار : فهو خير من تسعى به قدم ، وهو الذى ينظر الأعمى إلى أدبه ، ويسمع الأصم كلماته ، وهو صاحب الشوارد التى ينام عنها ، يملأ جفونه الكرى ، على حين يسهر الخلق من أجلها ويختصم ، وهو الحليم الساخر من خصمه الجاهل الذى يظن حلمه ضعفا حتى ينقض عليه فيبطش به ، وهو

الفارس المغوار الذى يمتطى صهوة جواد ظهره حرم على غيره ، وأمره بين يديه يطيعه كما يشاء ، وهو الكمىّ الذى يسير بين الجحفلين بحسامه المرهف يشق لجج الموت المتلاطمة ، وهو المعتدّ بنفسه ، المعوّل على شجاعته ، يجتاز الفلوات وحده ، حتى لتعجب منه سهولها وجبالها ، ثم هو آخر الأمر : صاحب الخيل ، وخِدْن الليل ، وأنيس الصحراء ، وابن الضراب والطعان ، ورب القرطاس والقلم :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ،
وأسمعتْ كلماتى من به صمم ؛

أنام مِلءَ جفونى عن شواردها ،
ويسهر الخلق جرّاها ويختصم .

وجاهلٍ مدّه فى جهله ضحكى ،
حتى أتته يد فرّاسة وفم ؛

إذا نظرتَ نيوب الليث بارزة
فلا تظنّنّ أن الليث يبتسم .

ومهجة مهجتى من همّ صاحبها ،
أدركتُها بجواد ظهره حرم ،

رجلاه فى الركض رجل ، واليدان يدٌ ،
وفعله ما تريد الكف والقدم ؛

ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به
حتى ضربت وموج الموت يلتطم .

فالخيل والليل والبيداء تعرفنى ،
والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؛

صحبت فى الفلوات الوحش منفردا ،
حتى تعجّب منى القُور والأكَم

وبعد أن أراح الشاعر نفسه مما كانت تحمله من أعباء كبريائه ، وتنفس غضبه فى ثورة نسى فيها سيف الدولة ، وشُغل فيها بنفسه ، عاد إلى سيف الدولة ليستعطفه فى الظاهر ، ولكنه يؤنبه فى الواقع : لقد استودع ما بقى من القصيدة . وهو أربعة عشر بيتا ، عبارات من العتب ، ترق تارة ، وتقسو غالبا ، وتلوّح بالفرقة حينا ، وتهدد بالقطيعة أحيانا ، حتى إذا ما قال كل ما يريد ، ختمه ببيت أراد أن يمحو بنصفه الأول ما خلّفه صَلَفه فى نفس سيف الدولة ، ولكنه ثبّت بنصفه الثانى ذلك الصلف نفسه :

هذا عتابك ، إلا أنه مِقَةٌ ،
قد ضُمِّن الدرَّ ، إلا أنه كَلِمُ

لقد بدأ هذه الدفعة من العتاب بيت يفيض رقة ، ويتدفق عذوبة ، حتى ليكاد المرء يعتقد أن أبا الطيب قد ثاب إلى رشده ، وأنه شعر بسوء أثر ما نطق به لسانه عن نفسه ، فيقول بلغة العاتب ، بل بلغة التائب : إن فراقه لسيف الدولة يعز عليه ، وإنّ كل شىء بعده عدم لا يغنى عنه :

يامن يعز علينا أن نفارقهم ،
وجداننُا كلَّ شىء بعدكم عدم .

غير أنه يبدو أن المتنبى قد جاوزت به ألفاظه هدفه ، فكان عليه أن يفسد تلك

الرقة ، وأن يُمرّ تلك العذوبة ، فيعقب على ذلك بأبيات تنعكس فيها حالة نفسية مضطربة ، متذبذبة بين استرضاء سيف الدولة وإغضابه فى غير ترفق . فيبدأ بعتابٍ مشوب بالاعتزاز بالنفس إذ يقول :

ما كان أخلقنا منكم بتكرمة
لو أن أمركمُ من أمرنا أمم !

ثم يتلوه استسلام هو أدنى إلى الفناء فى الحب حين يرق رقة الأصدقاء الأصفياء ، ويذل ذل المحبين المتيمين ، إذ يقول :

إن كان سرّكمُ ما قال حاسدنا
فما لجُرح إذا أرضاكم ألم

ولكنه — كعادته — يخشى أن تغلبه رقته (أو ما تكلفه من الرقة) فينتقل سريعا إلى اللوم يلمح به تلميحا ، ويعرض فيه بسيف الدولة تعريضا :

وبيننا — لو رعيتم ذاك — معرفةٌ ،
إن المعارف فى أهل النهى ذِمم .

وهنا يشعر أبو الطيب بأنه يتنفس عاطفة هى أقرب إلى نفسه ، وينطق بما هو أصدق فى تصوير شعوره ، فيندفع فى التعبير عن كوامن نفسه ، وينتقل من التلميح إلى التصريح ومن التعريض إلى التقريع البغيض :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزُكم !
ويكره الله ما تأتون والكرم .

ويطمئن المتنبي إلى كبريائه ، ويطمع فى المزيد من غلوائه ، كالمنازل الذى يرى الدم يسيل من خصمه ، فيستشرى ولا يأبه أن يقتل بعد أن جرح ، فيرسل بالقضية العامة تؤيد الدعوى الخاصة :

ما أبعدَ العيبَ والنقصان عن شرفى
أنا الثريا ، وذان الشيب والهرم .

وكأنما أراد أبو الطيب أن يلين جانبه قليلا ، ليخفف من شدة ما قال ، ولكنه هنا يهوى مستخزيا ، فيسأل مستجديا ، ويرزح تحت عبء الحسد ، فتظهر النفاسة على لسانه ، فينطق فى بيت واحد بما يجمع بين مدح سيف الدولة بأنه الغمام الجواد ، وذمّه بأنه الظالم الذى لا يعدل فى توزيع عطاياه ، ويتنفس على منافسيه فيتمنى لهم صواعق هذا الغمام ، ويذل بالاستجداء والسؤال ، ويضعف بالتمنى لما يجود به الغمام من الحيا الهطال :

ليت الغمام الذى عندى صواعقه
يزيلهن إلى من عنده الديَم !

ويستخزى مرة أخرى ، محاولا ستر استخزائه فى ثوب من التهديد ، ولكنه ثوب شفشاف لا يستر ما تحته من ضعف وتهافت إخال المتنبى قد أصيب بهما فجأة وقد أوشك أن يختم قصيدته ، لفرط ما نطق به مما أغضب أميره . إنه لم يزد على أن يقول :

إن البعد عنكم — ذلك البعد الذى يهدد

به — يكلفنى أن أقطع مراحل لا تقوى على قطعها الإبل السريعة الشديدة .

أفيريد المتنبى أن يعلن أنه سيهجر سيف الدولة على الرغم مما سيكلفه ذلك من بُعد الشُّقة ووعورة الطريق؟ أم يريد أن يتراجع عن غطرسته ، فيذكّر سيف الدولة بأن هجره له — هجر المتنبى لسيف الدولة — ليس قريب المنال ، وأن الفرصة متاحة للأمير لاسترضائه واستبقائه ؟ أرجح الرأيين عندى أنه فى هذه المرحلة من القصيدة على الأقل كان أميل إلى الأخذ بأسباب الصلح لو أن سيف الدولة تقدم له بالخطوة الأولى . فهو لذلك يرسل طلائع الهدنة ، ورسل الصلح فى البيت التالى :

أرى النَّوّى تقتضينى كل مرحلة
لا تَستقلُّ بها الوَخّادة الرُّسُمُ .

ثم يبدو فى صورة المهدد ، ولكنه تهديد أدنى إلى التحريض والإغراء حين يقول :

لئن تَرَكْنَ ضُمَيراً عن مَيامِنِنا
لَيَحْدُثَنّ لمن ودّعتهم ندم .

وإننا لنلمس ذلك الرفق فى التهديد فى تذكير سيف الدولة بما سيحدث له من ندم إذا فارقه أبو الطيب . إن الزاهد الغاضب لا يقف ليقول : هيا استبقونى قبل أن تفوت الفرصة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين .

ثم لنتدبر الرفق واللين اللذين يشعان فجأة فى لفظ «لمن ودّعتهم» . ولو أن المتنبى كان جادا فى رغبة الفراق ساعتئذ لما ترفق باستعمال هذا اللفظ ، وقد كان له عنه مندوحة فى مثل «لمن فارقتهم» أو «غادرتهم». فإن أردنا ما هو أدل على ذلك الرفق وأوضح فى استجلاء شعور أبى الطيب فى هذه اللحظة التى تخاذل فيها ، فلنستمع للبيت التالى :

إذا ترحّلتَ عن قوم ، وقد قدروا
ألا تفارقهم ، فالراحلون هُمُ .

وأشهد أن هذا من أصدق ما قاله الشعراء ، وإنه ليشف عما تنطوى عليه نفس الشاعر فى هذه الآونة من رغبة قوية فى أن يستبقيه سيف الدولة ، غير أنه — كعادته — ينقلب وشيكا ، ويغضب سريعا ، ويكاد ينقم من نفسه ما فَرَط منها من الملاينة ، فيأبى إلا أن يعود إلى الجفوة فى التعبير فيعلن :

شرُّ البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر مايكسِبُ الإنسان مايَصِمُ .

وتعود إليه صورة حساده ، ويؤلمه تسويته بهم ، وكأنما يريد أن يملى شروط الصلح على سيف الدولة إن هو أراد استبقاءه: وهى ألايسوّى بينه وبين سَقَط المتاع ، من زعانف الشعراء ، فيقول :

وشرُّ ماقَنَصتْه راحتى قَنَصٌ
شُهْبُ البُزاة سواء فيه والرَّخَمُ

بأىِّ لفظ تقول الشعر زِعْنِفة
تجوز عندك ، لا عُرب ولا عجم ؟

ثم يحاول — كما قلنا من قبل — أن يصلح ما أفسده ، فيسمي كل ما تقدم ، من لين وضعف ، ولوم وتقريع ، عتابا بل مِقَةً ومحبة ، غير ناس نفسه وقدره ، فيصف ذلك العتاب بأنه كلام قد ضُمِّن الدرَّ :

هذا عتابك ، إلا أنه مِقَةٌ
قد ضُمِّنَ الدرَّ ، إلا أنه كَلِمُ

كأن مجرد هذه التسمية يغير من طبيعة ما ساقه في هذه القصيدة !

والحق أن المتنبي لم يكن في موقف اعتذار أو عتاب ، ولا في موقف مدح ، بل لم يكن في موقف فخر خالص ، وإنما كان خاضعا لمجموعة معقدة من الوجدانات تعتوره في وقت واحد أو لحظات سريعة متلاحقة . مما أخرج لنا هذا المزيج العجيب في هذه القصيدة التي ظلت أكثر من ألف سنة وهي تثير إعجاب القارئين ، وقلَّ من تلمس ما وراء شاعريتها البارعة من نفسية مضطربة متوثبة .

ولكي يتجلّى لنا مبلغ صدق مانقول يكفي أن نضاهي هذا العتاب المعقد بعتاب آخر للمتنبي ، قاله لسيف الدولة كذلك ولكنه كان في حالة نفسية تختلف عن حالته السابقة :

ألا ما لسيف الدولة اليومَ عاتبا ؟
فَداه الورى أمضى السيوفِ مضاربا .

ومالي إذا ما اشتقتُ أبصرت دونه
تَنائفَ لا أشتاقها وسَباسبا !

وقد كان يُدْني مجلسي من سمائه
أحادث فيها بدرها والكواكبا .

حَنَانَيْكَ مسئولا ، ولبيكَ داعيا ،
وحَسبي موهوبا ، وحسبُك واهبا !

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقا ؟
أهذا جزاء الكِذْب إن كنت كاذبا ؟

وإن كان ذنبي كلَّ ذنب فإنه
محا الذنبَ كل المحو من جاء تائبا .

إن في هذا أدبا رفيعا ، ورقة لا تشوبها الكبرياء ، وتواضعا لا يبدو الصلف من خروق قناعه : هنا نجد المتنبي عاتبا كما نفهم العتب ، لا يَتنفّس على وليه المكارم يقاسمه إياها ، أو يدعيها كلها لنفسه ؛ ولا يضن عليه بالمنزلة اللائقة به . بل يقف منه حيث يشعر كل إنسان بأنه مخطىء تائب ، وبأنه يتطلع إلى صَفْحه ورفع منزلته مما انحدرت إليه .

فسيف الدولة هنا عاتب ، لا متجن ولا ظالم لا يرجى عدله ؛ وسيف الدولة هنا يشتاق المتنبي لقاءه بدلا من أن يكون زاهدا في مصاحبته ، والتنائف والفلوات التي تتراءى للمتنبي هنا تتراءى له بينه وبين سيف الدولة الذي يجعلها فاصلة بينهما ، ويشتاق المتنبي اجتيازها ليصل إليه ، وليست المفاوز التي كان يراها المتنبي موصلة لخصم سيف الدولة (كافور) ، يهدد باجتيازها ليفارقه ويخلص من صحبته ؛ وسيف الدولة هنا بدر في سمائه ، وحوله

كواكب يتطلع المتنبي إلى الصعود إليهم ليحادثهم ، وليس المتنبي هنا هو الثريا التي لا ينالها شيب العيب ولا هرم النقصان ؛ وليس سيف الدولة وندماؤه هنا هم أولئك الذين كان يجمعهم المتنبي في غير استحياء ولا تجمّل حين يقول :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم .

وسيف الدولة هنا يُسترحم ويلبي ، ويُشكر واهبا ، لايُعنَّف متعنتاً ، باحثا عن عيب للمتنبي ، متعقبا لهفواته ، مخفقا في العثور عليها ؛ والمتنبي هنا خاضع معترف تائب ، فحسبه — مهما يكن ذنبه — أن يأتي تائبا ، وليس متسخطا متململا يعجب من أن سيف الدولة لم يقاسمه عواطفه ، ولم يبادله احترامه ، فيجأر من قلب شَمّ لقلب نابض بالحب ، وينادي بحقه في التكريم ممن لم يكن أمره من أمره أمما ، ويصرخ بالشكوى ممن لم يرع المعارف في أهل النهى .

ألا إن هناك فرقا عظيما بين ما يمكن أن نلخص به عتابه الأول في قوله :

شر البلاد بلاد لا صديق بها ،
وشر مايكْسِب الإنسان ما يَصِمُ .

وما يمكن أن نلخص به عتابه الثاني في قوله :

وإن كان ذنبي كلَّ ذنب فإنه
محا الذنبَ كلَّ المحو من جاء تائبا .

ثم لننظر في عتاب آخر قاله المتنبي لسيف الدولة كذلك ، على إثر تأخره عنه في مدحه ، وظنه أنه كان عاتبا ، ولكن المتنبي لم يكن هنا حانقا ، كما كان حانقا في عتابه الأول ، ولهذا جاء عتابه هنا سهلا سمحا ، خاليا من السب ، أليقَ بمقام العتب :

بأدنَى ابتسام منك تحيا القرائح ،
وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح ،
ومن ذا الذي يقضي حقوقك كلها ؟
ومن ذا الذي يُرْضِي سوى من تسامح ؟
وقد تقبل العذر الخفي تكرّما ،
فما بال عذري واقفا وهو واضح !
وإن مُحالا — إذ بك العيشُ — أن أُرَى
وجسمك معتلٌّ وجسمي صالح ؛
وما كان تَرْكِي الشعر إلا لأنه
تُقصِّر عن وصف الأمير المدائح .

ألسنا نشعر برقة تنساب في هذه الأبيات انسيابا ، وتلطف في التعبير ، بل لطف كريم لم ينزل إلى حضيض الملق ، ولكنه لم يتشبث بالغطرسة ؟ فأبو الطيب هنا لا يتقاضى سيف الدولة المساواة التي يطلبها الند من الند حين يقول له :

وبيننا — لو رعيتم ذاك — معرفةٌ
إن المعارف في أهل النهى ذِمَم .

ولكنه يقنع بفضل عطفه ، ويرضى منه بأدنى ابتسام :

بأدنى ابتسام منك تحيا القرائح ،
وتقوى من الجسم الضعيف الجوارح .

وهو لايرى لنفسه حقوقا لدى سيف الدولة يقرّعه على عدم أدائها ، ويتهمه بأنه ينتقصها ليمنحها من لا يستحقونها ، كما قال له قبلا :

إن كان يجمعنا حب لغرّته
فليت أنّا بقدر الحب نقتسم !

وهو هنا لا يعرض به بأنه خصم وحكم ، وبأنه خصم خصيم ، وحكم ظلوم ، كما قال له فيما سبق :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى .
فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم .

وهو هنا لا يصارحه بأن ظلمه حول غيث سحابه إلى خصومه ، وأنزل به هو صواعقه ، كما صارحه بذلك حين قال له :

ليت الغمامَ الذى عندى صواعقُه
يزيلهن إلى من عنده الدِّيَم !

وإنما يرى هنا أن سيف الدولة هو صاحب الحقوق عليه ، وأنه (أى المتنبي) لا يستطيع أن ينهض بأداء كل تلك الحقوق وأنه لا سبيل لتأدية جميع هذه الحقوق ، إلا إذا تسامح الأمير فى بعض حقوقه :

ومن ذا الذى يقضى حقوقك كلها
ومن ذا الذى يُرْضِى سوى من تسامح ؟

وليس سيف الدولة هنا عيَّابا باحثا عن النقائص ، يطلب لأبى الطيب عيبا فيعجزه ذلك ، بل هو سمح يقبل العذر الخفىّ ، فأجدر به أن يقبل عذر أبى الطيب وهو واضح جلىّ :

وقد تقبل العذر الخفىّ تكرّماً ،
فما بال عذرى واقفا وهو واضح !

وليس سيف الدولة شخصا يتلمس أبو الطيب مفارقته ، ولو اقتضاه هذا البعد كل مرحلة لا تستقلّ بها الوَخّادة الرُّسُم ؛ وليست دولته شر البلاد لأنه لاصديق له بها ؛ وإنما هو شخص لا يستطيع المتنبي أن يعيش إلا به ، بل إن من المحال ألا يتأثر بما يتأثر به من ألم :

وإنّ مُحالا — إذ بك العيش — أن أُرَى
وجسمك معتلّ وجسمىَ صالح .

وليس فتور المتنبي عن مدح سيف الدولة راجعا إلى أن شعره أسمى من أن يتقدم به إلى من يحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، ومن لا ينتفع بناظره ، فتستوى عنده الأنوار والظلم ، ومن لا يفرق بين شعر الزعانف الذين ليسوا عربا ولا عجما وشعر الأستاذ الذى يقول الكلم فيضمّنه الدر ، وإنما يرجع ترك المتنبي لمدح سيف الدولة هنا إلى أن المدائح تقصر عن مدحه :

وما كان ترْكِى الشعرَ إلا لأنه
تقصّر عن مدح الأمير المدائح !

وكان ترك الشعر مأساة مكررة ، يغضب لها سيف الدولة ، ويُرْضى بها المتنبي كبرياءه ، ثم تنتهى بقصيدة

قد تكون كما رأينا هنا عتبا ، وقد تكون مأساة أشد من ترك الشعر ، وقد تكون مزيجا من العتب والفخر .

ولننظر الآن فى قصيدة أخرى اعتذر فيها المتنبي لسيف الدولة اعتذارا جمع بين رقة الاعتذار وعزة النفس .

فقد تأخر مدح أبي الطيب عن سيف الدولة — كالعادة — فعاتبه مدة ، ثم لقيه فى الميدان ، فرأى منه المتنبي انحرافا عنه ، وأنكر المتنبي تقصير سيف الدولة فيما كان عوده من الإقبال عليه ، والسلام عليه ، فعاد إلى منزله وكتب له قصيدته التى مطلعها :

أرى ذلك القربَ صار ازورارا ،
وصار طويل السلام اختصارا .

وهو عتب رقيق يزداد رفقا ولينا فى البيتين التاليين :

تركتنىَ اليوم فى خَجْلة ،
أموت مرارا وأحيا مرارا ؛
أسارقك اللحظَ مستحيياً ،
وأزجر فى الخيل مُهْرِى سرارا

لكن ينقلب فى البيت التالى إلى عزة ، ولكنها عزة كريمة تلفّها براعة المتنبي فى شاعرية لبقة تكاد تسترها لأنه يقول : إنما يعتذر المجرم ، فإذا اعتذرت إليك من غير جرم كان اعتذارى فى احتياج إلى اعتذار ، لأنه لا سبب له ولا مسوغ :

وأعلمُ أنى إذا ما اعتذرت
إليك أراد اعتذارى اعتذارا .

وهو يعلن أن الجفوة وتأخره عن مديحه لم يكن أمرا اختاره المتنبي ، وإنما هو اضطرار سيق إليه ، ويؤكد ذلك بأنه لو كان تأخره عنه اختيارا لكان ذلك كفرا بأيادى سيف الدولة الباهرة .

كفرتُ مكارمَك الباهرا
تِ إن كان ذلك منى اختيارا ،

ثم تنتاب المتنبي نوبة الفخر ، تنازع شعوره الخجل والميل إلى الاعتذار ، فتخرج لنا عبقريته من كل ذلك مزيجا عجيبا ، نخاله أرضى سيف الدولة ، ولا نشك فى أنه أرضى المتنبي :

ولكن حَمَى الشّعرَ ، إلا القليـ
ـل ، هَمّ حمى النوم إلا غرارا .

ونبحث عن مصدر ذلك الهمّ الذى حجب النوم ، إلا قليله ، عن عيون المتنبي ، كما حجب الشعر ، إلا قليله ، عن آذان سيف الدولة ، فلا نعثر عليه إلا فى لفظ غامض ، يستتر وراءه المتنبي : فهو أولا ينفى عن نفسه أنه سبب ذلك الهم :

وما أنا أسقمتُ جسمى به ،
ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

ثم ينتقل بعد هذا التمهيد إلى إلصاق التهمة بالدهر المسكين ، الذى ينبغى أن يكون دائما كبش الفداء مع كل شاك لا يستطيع (أو لا يريد) أن يحدد بالدقة مصدر آلامه :

فلا تُلْزِمَنّى ذنوب الزمان ،
إلىّ أساء ، وإياىَ ضارا .

وكأنما شعر المتنبي عندئذ أنه أبرأ نفسه من كل ما عليه من دين المسئولية ، فتشجع ولمّ أذيال الخجل التى كان يتعثر فيها منذ قليل ، وانتقل من الاعتذار إلى الفخر ، فأخذ يذكر سيف الدولة بأياديه البيضاء عليه — أيادى أبى الطيب البيضاء على سيف الدولة — نعم ، أما أيادى سيف الدولة على المتنبى فقد انقضى ذكرها فى أول القصيدة ، عندما كان يرزح تحت عبء الخجل ، ويحاول التنصل من الذنب فيقول:

كفرتُ مكارمَك الباهرا
تِ إن كان ذلك منى اختيارا ،

أما الآن فلم يبق له إلا أن يذكر له فضله عليه ، كأنما يريد أن يقول له : حسبك ما قلتُ فيك من القصائد السائرات التى لا تقف عند حدود الأقطار ، بل تثب الجبال وتخوض البحار :

وعندى لك الشُّرُدُ السائرا
تُ لا يختصصْنَ من الأرض دارا:
قَوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْوَلى
وثِبْنَ الجبال وخضن البحارا.

ويزداد المتنبى زهوا وإعجابا بنفسه ، فيسمح للسانه أن يقول ما هو أقرب إلى المنّ والأذى منه إلى الترضية والإطراء :

ولى فيك ما لم يَقُلْ قائل
وما لم يَسِرْ قمرٌ حيث سارا .

ولكنه يشعر بأنه نسى فى كل ذلك سيف الدولة ، وأنه شغل نفسه ، وشغل سيف الدولة ، بالثناء على شعره ، وإطراء مواهبه ، فيلتفت إليه التفاتة مفاجئة ، لا تجد لها صلة بما قبلها من الأبيات ، ولكنها الصلة الخفية التى لايشرحها إلامحاولة الوقوف على ماكان يجرى فى نفس أبى الطيب من الانفعالات المتضاربة المتلاحقة :

فلو خُلِقَ الناسُ من دَهْرهم
لكانوا الظلام ، وكنت النهارا ،

أية علاقة بين ما كان يتكلم عنه أبو الطيب من وصف قصائده الشُّرُد الجوّالة فى آفاق الأرض ، التى لم يقل مثلها قائل ، وبين أن سيف الدولة كالنهار وسط ظلام الناس ؟

لكأنه يريد أن يقول له : إن كنت تريد برهانا جديدا على مقدرتى على مدحك بشرط ألا تنسى ما أسجله عليك من فضل مديحى السابق فهاكه فى بيتين اثنين ، يتلوهما بيتان آخران ، يقاسم فيهما أبو الطيب سيف الدولة ما تضمناه من مدح ، أما البيتان الأولان فهما :

فلو خُلق الناسُ من دهرهم
لكانوا الظلام ، وكنتَ النهارا ،
أشَدُّهُم فى الندَى هِزَّةً
وأبعدهم فى عَدُوٍّ مُغارا .

وأما البيتان الآخران فهما :

سما بك هَمِّىَ فوق الهموم
فلست أُعدّ يسارا يسارا ؛
ومن كنتَ بحرا له يا علىّ (م)
لم يقبل الدرّ إلا كبارا .

وكما كان أبو الطيب يُدِلُّ على سيف الدولة ، فينقطع عنه بشعره ، كان يفعل ذلك مع غيره ممن اتصل بهم من الأمراء والحكام قبله وبعده .

فقد عاتبه مرة الأمير أبو محمد الحسن ابن عبيد الله بن طُغْج على تركه مدحه، فاعتذر له فى سماحة ولباقة تشبهان ما رأيناه فى القصيدة التى انتهينا من تحليلها ، إذ قال له :

تَرْكُ مدحيك كالهجاء لنفسى ،
وقليلٌ لك المديح الكثير ؛
غير أنى تركت مُقْتَضَبَ الشعر (م)
لأمر مثلى به معذور ؛
وسجاياك مادحاتُك ، لالفظى ، (م)
وَجودٌ على كلامى يُغير
فَسَقَى اللهُ من أحب بكفَّيكَ (م)
وأسقاك أيهذا الأمير

أما السماحة فتتجلى فى الاعتراف بأن انقطاعه عن مديح أميره بمثابة هجائه لنفسه ، وأنه لا يستكثر عليه شعره ، بل إن كثير المديح قليل بالنسبة له :

ترك مَدْحيكَ كالهجاء لنفسى ،
وقليل لك المديح الكثير .

وأما اللباقة فتتشكل بشكلين ، كلاهما أصيل عند المتنبى : أحدهما اللباقة الشعرية ، التى تنطقه بالفكرة التى تصرف المرء عن شكواه ، بما فيها من براعة تكاد تصل إلى حد السفسطة ، ولكن تصونها الصورة الباهرة ، فى العبارة المعبرة ، فهو يقول له :

إنه (أى الأمير) فى غنى عن مدحه ، لأن سجاياه هى التى تتولى مدحه ، لا ألفاظ المتنبى ، وكذلك جوده الذى يتضاءل أمامه شعره :

وسجاياك مادحاتك ، لا لفظى ، (م)
وَجودٌ على كلامى يُغير

بالضبط كما قال لسيف الدولة ليصرفه عن شكواه من تقصيره فى إنشاد شعره :

وما كان تركِيَ الشعرَ إلا لأنه
تقصر عن وصف الأمير المدائح

أما الشكل الثانى الذى تتشكل به لباقته فهو ما أسميه لباقة الغموض الذى يستتر وراءه المتنبى فى الاعتذار عن تأخر مدائحه ، فهو لا يصرح بالسبب الحقيقى الذى حجزه عن مدح وليه ، ولعله كان على حق فى الاتجاه إلى هذا الغموض ، فربما كان إعلان السبب الحقيقى عذراً أقبح من الذنب ، ولذلك يكتفى المتنبى بأن يقول :إننى تركت الشعر لعذر يقبل من مثلى :

غير أنى تركت مقتضَبَ الشعر (م)
لأمر مثلى به معذور

ونبحث عن ذلك الأمر ، فلا نجد له صدى يتردد . كأنما يكفى أن يعلن المتنبى أنه يعذر نفسه فيعذره الناس ، لقد قال مثل ذلك لسيف الدولة ، حينما أعلن أن

عذره ، واضح ، ولم يزد على ذلك إلا تعجبه من أن سيف الدولة لم يقبله على الرغم من وضوحه :

وقد تقبلُ العذرَ الخفيَّ تكرّما
فما بال عذرى واقفا وهو واضح؟

كما سبق أن قال فى قصيدة أخرى :

إنه لم يكن مختارا فى تأخره عن مدح سيف الدولة ، وإنما اضطر إلى ذلك اضطرارا ، وهو لا يذكر سبب ذلك الاضطرار إلا فى عبارة غامضة كذلك ، هى أنه كان لديه همّ حمى الشعرَ إلا القليل ، كما حمى النوم إلا غِرارا :

كفرتُ مكارمَك الباهرا
تِ إن كان ذلك منى اختيارا
ولكن حمى الشعرَ إلا القلي
لَ همّ حمى النومَ إلا غرارا

ولعلّ أرق عتاب نطق به أبو الطيب هو تلك الأبيات التى قالها حين غضب عليه أبو العشائر ، على إثر سماعه لقصيدته التى بدأنا هذه المقالة بتحليلها :

* واحر قلباه ممن قلبه شبم ! *

وكان حاضراً مجلس سيف الدولة ، فتأذّى بتعريض المتنبى ببعض بنى حمدان ، أبناء عم سيف الدولة ، فأرسل أبو العشائر بعض غلمانه ليوقعوا به ، فلحقوه بظاهر حلب ليلا ، فرماه أحدهم بسهم قائلا : خذه ، وأنا غلام أبى العشائر . فقال المتنبى :

ومنتسبٍ عندى إلى من أحبه ،
وللنَّبل حولى من يديه حفيف؛
فهيج من شوقى ،وما مِن مذلة
حننتُ ، ولكن الكريم ألوف ؛
وكل وداد لايدوم على الأذى ،
دوامَ ودادى للحسين ، ضعيف
فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا
فأفعاله اللائى سررن ألوف
ونفسى له ؛ نفسى الفداء لنفسه ،
ولكن بعض المالكين عنيف ؛
فإن كان يبغى قتلها يلك قاتلا
بكفيه ، فالقتل الشريف شريف .

فهنا يرق رقة الأصدقاء الأوفياء الذين لا يغرهم غدر ، ولا يحد من شوقهم خوف الظهور بالمذلة ، فإن الكريم ألوف . وهو يعلن أن الود الذى لا يدوم على الأذى كدوام وداده لأبى العشائر ود ضعيف .

وهو لا يريد أن ينسيه غضبه — لفعل سىء واحد — ألوف الأفعال السارة التى سبقته ، ثم هو يعلن أن نفسه ملك لأبى العشائر ، وإن كان بعض المالكين عنيفا . وهو تقريع لا نستطيع أن نعترض عليه ، بل هو أرق صورة لتقريع فى مثل هذا المقام . فإذا كان أبو العشائر يبغى قتله فليقتله بيده ، لا بيد غلمانه ، فقتل الشريف شريف .

وبعد فقد أكون قد قسوت على المتنبى ولكن هذا ما وسعنى جهدى من الرأى فإن أكن قد وفقت فيه فالحمد لله ، وإن أكن قد جاوزت الصواب فمعذرة لشاعرنا أبى الطيب .

محمد مهدى علام
نائب رئيس مجمع اللغة العربية